جورج برنارد شو

بقلم سليمان موسى

[بمناسبة ذكراه الخامسة]

ان تاريخ الآداب الانكليزية* لايخفل بمؤلف مسرحي يستطيع ان يزاحم جورج برنارد شو على المرتبة الثانية في هذا المضمار . ومع ان شو نفسه حاول ان يحط من قدر شكسبير في كثير من نقداته وغمزاته ، كي يحل هو في المرتبة الاولى فقد بقي شكسبير وسيبقى فريد العصور والاجيال .

على ان الشهرة العريضة التي تمتع بها شو في حياته وما زال يتمتع بها الى اليوم ، لم تتح لكاتب آخر من كتاب القرن العشرين . ولم تكن شهرته وليدة الصدفة العابرة بل نتيجة للبحث المتواصل والجهد الشاق ، بالاضافة الى ما حبته به الطبيعة من ذهن لامع وعقل جبار وجلد على العمل عظيم . وبالرغم من ان هذا الايرلندي لم يدرس دراسة منتظمه ، ولم يحصل على درجة جامعية فانه قد كتب المجلدات الضخمة من مسرحيات وقصص ونقد وسياسة وفن واجتماع . وقد طبعت مؤلفاته عام ١٩٣١ في ستة وثلاثين مجلداً ضخماً .

وقد سأله احد الصحفيين — بمناسبة بلوغه التسعين من عمره — عما ينتوي ان يفعل اذا قدّر له ان يبلغ مئة من العمر فأجاب : « انني لم اسر في حياتي قط على خطة موضوعة . وسوف اجد الكثير من الاعمال حتى ولو قدر لي ان اعيش الف عام . »

وفي عام ١٩٤٤ عندما كان في الثامنة والثمانين من العمر ، زاره المحامي موريس ارنست واخذ يتحدث اليه في شؤون كثيرة لا طائل فيها ، فلم يكن من شو الا ان نهض قائلاً : « هذا يكفي . اذهب الى عملك ودعني وشأني فان عندي من العمل ما يستغرق العامين القادمين . »

* * *

ولد هذا العبقري في مدينة دبلن بايرلندا من اب مولع بالشراب والتدخين ومن ام تهيم بالموسيقى . ودرس دراسة غير منتظمة اولا في مدرسة كاثوليكية ثم في مدرسة للبروتستانت ، وقد اثر على مشاعره الطرية ما وجد من تميز طائفي بين التلامذة ثم ظهر هذا التأثير واضحاً في مؤلفاته وارائه فيما بعد .

وفي السادسة عشرة من عمره عمل في مكتب وكيل للعقارات براتب ثمانية عشر شلناً في الشهر ؛ ثم لحق بأمه الى لندن عام ١٨٧٦ . وهو في العشرين من العمر ، حيث كان يأمل ان يجد مجالا لمواهبه في تلك المدينة العظيمة ، لان لندن كانت على حد قوله « العاصمة الادبية للناطقين بالانجليزية . »

كتب شو مقاله الاول عندما كان في عامه التاسع عشر ، ونشر مقاله ذاك في جريدة اسبوعية تصدر في لندن . ولم يصادف بعد قدومه الى لندن نجاحاً عاجلاً حتى انه في التسع السنوات الاولى التي قضاها فيها ، لم يكتسب من انتاج قلمه سوى ستة جنيهات كانت خمسة منها بدلا عن موضوع يتعلق بامتيازات العقاقير طلب كتابته صديق له من المحامين . وخلال هذه السنوات كان يعتمد في حياته المعاشية على جنيه واحد يتلقاه من والده كل اسبوع بالاضافة الى انه كان يعيش مع امه التي كانت تعطي دروساً في الموسيقى . ولا شك ان حياته القاسية في هذه الفترة املت عليه قوله فيما بعد على لسان احد اشخاص مسرحيته « الرجل والرجل الاسمى » ، «إن الفنان الاصيل لا يقبل ان يعمل بعيداً عن فنه ولو ماتت امرأته من الجوع ، ولو مشى اولاده حفاة عراة ، او لو اضطرت امه ان تكدح لاغاثته بالرغم من سنيها السبعين . »

وفي فترة التسع السنوات هذه كتب خمس روايات . وقد ظهرت هذه الروايات بشكل متسلسل في صحف اسبوعية بلندن ، فيما بين عام ١٨٨٤ وعام ١٨٨٨ ، وهذه الروايات الخمسة هي ؛ فجاجة Immaturity الانشوطه المخبولة The Irrational Knot ، الحب بين اهل الفن LoveAmong theArtists ، مهنة كاشل بايرون Cashel Byron'S Profession ، اشتراكي شرود An Unsocial Socialist . وقد عرض رواياته هذه على كثير من دور النشر ولكنه لم يوفق الى اقناع احدى تلك الدور بطباعة رواياته . على ان الشهرة التي احاطت باسمه فيما بعد جعلت دور النشر تتهافت على طبع تلك الروايات ذاتها .

وفي عام ١٨٨٤ انضم شو الى جمعية الفابيين ، واصبح بعد قليل علماً من اعلامها ، وكانت غاية هذه الجمعية تقريب مفهوم الاشتراكية من اذهان الجمهور . ومنذ ذلك الحين غرق شو الى اذنيه في معالجة المشاكل السياسية والاجتماعية . واخذ يتمرن على الخطابة في الاجتماعات وفي الميادين العامة ، حتى اصبح بعد بضع سنوات خطيباً مفوهاً لا يعرف التردد ولا الارتباك . وخلال هذه المدة صار نباتياً لا يأكل اللحوم ، وقال فيما بعد « ان امتناعه عن اكل اللحوم يجعله يتوقع ان تمشي في جنازته قطعان من الثيران والخراف والخنازير ، واسراب من الطيور الداجنة والسمك وغيرها » ونباتيته هذه كانت مصدراً لكثير من النكات والنوادر اشهرها دون شك تلك الملاحظة التي ابدتها الممثلة ستيلا كامبل بعد ان ارهقها التمرن على دور لسيزا في مسرحية بيجماليون « سيتناول شو يوماً ما وجبة ثقيلة من لحم العجول ، وليكن الله في عون النساء بعد ذاك » .

وفي عام ١٨٨١ اصيب بالجدري وتشوهت ملامح وجهه نتيجة لتلك الاصابة فاطلق لحيته منذ ذلك الوقت ، وصارت تلك اللحية جزءاً لايتجزأ من معالم حياته ومصدراً غزيراً للتعليقات البارعة اللاذعة منه ومن معاصريه . وقد كان لون لحيته احمر في شبابه ثم صارت ناصعة البياض عندما شاخ ، هذا بالاضافة الى اصابة شعر رأسه بالصلع . وقد سألته يوماً صحفية حسناء : كيف ترى العالم يا مستر شو ، فاجاب وهو يشير الى رأسه ولحيته : «العالم بين رأسي ولحيتي .. غزارة في الانتاج وحماقة في التوزيع . »

* * *

وفي عام ١٨٨٥ اشتغل في احدى صحف لندن ناقداً للكتب الجديدة ،

* هذا المقال مقتطف عن كتاب يجري اعداده عن حياة برناردشو .

وفي العام التالي اشتغل ناقداً فنياً في صحيفة اخرى ، وعمل بعد ذلك ناقداً موسيقياً في صحيفة ثالثة، وقد طبعت مقالاته في نقد الموسيقى في مجلد عام ١٩٣٧ وكذلك طبعت مقالاته الماثلة التي كتبها في فترة ١٨٩٠ - ١٨٩٤ في ثلاثة مجلدات عام ١٩٣١. وفي عام ١٨٩٥ عين ناقداً مسرحياً للصحيفة الاسبوعية (الساترداي ريفيو) وفي هذه المجلة كتب شو مجموعة من المقالات تعد من افضل ما كتب عن المسرحيات والممثلين. وفي عام ١٩٣١ طبعت مقالاته في ثلاثة مجلدات.

وفي تلك الفترة اطلع برنارد شو على كتابات هنري جورج في الاشتراكية وكذلك على مؤلفات كارل ماركس فتأثر بآرائها وأصبح منذ ذلك الوقت اشتراكياً صميماً. واطلع على مسرحيات المؤلف النروجي هنريك ابسن فاعجب به ايما اعجاب حتى انه كتب عنه كتاباً عام ١٨٩١ بعنوان «روح الابسينية». وقد اثار اعجابه بابسن حفيظة الكثيرين من نقاد وممثلي لندن في ذلك الوقت وهذا واضح في مجموعة الرسائل التي تبادلها مع الممثلة المشهورة ايلين تيري. ثم استقال من عمله في مجلة (الساترداي ريفيو) عام ١٨٩٨ بسبب اصابة في قدمه وتوعك صحته من جهة وبسبب الارباح الطائلة التي اخذت تنهال عليه من ريع مسرحياته من جهة اخرى .

* * *

حاول شو لاول مرة ان يكتب مسرحية عام ١٨٨٥ ، وفعلاً كتب الفصل الاول منها ، وكي يتأكد من جودة انتاجه قرأ الفصل لصديقه وليم ارثر ، فقال له هذا انه لا يمكن ان يكون مؤلفاً مسرحياً ، ثم قرأ الفصل ذاته للمؤلف المسرحي هنري ارثر جونز ولم يشجعه جونز ايضاً . وعلى ذلك ظن شو انه لا يستطيع ان يكتب في هذا الفن فرمى بمسودة الفصل جانباً .

وفي العام ١٨٩٢ مثلت رواية هنريك ابسن « الاشباح » في احد مسارح لندن، وقد قابل معظم النقاد الانجليز هذه المسرحية بالسخرية والتجريح ، ولكن شو كان يرى ان مسرحيات ابسن هي الطابع الاصيل الواقعي الذي يجب ان يحتذى . ولذلك فانه عاد الى مسودة الفصل الذي كتبه قبل سبعة اعوام فاعاد كتابته من جديد واضاف اليه فصلين آخرين ودعا المسرحية « بيوت الارامل » Widower's Houses ، وقدم هذه المسرحية الى المخرج الهولندي جرين الذي كان متحمساً لاخراج مسرحيات على طراز مسرحيات ابسن . وفعلاً بدأ تمثيل المسرحية في اواخر عام ١٨٩٢ . وقد قام بدور البطلة (بلانش) في هذه المسرحية الممثلة فلورنس فار التي كان بينها وبين شو علاقات جنسية والتي الهمته هذا الدور اصلاً .

وقد قوبلت هذه المسرحية بالترحيب من الاشتراكيين الذين شاهدوها ، ولكن غالبية النظارة لم يتحمسوا لها، كما ان النقاد قابلوها بعاصفة من التجريح ، وثار حولها نقاش عنيف في الصحف جعل شو يستيقن من مقدرته على انتاج مسرحيات جديدة ناجحة .

وفي العام التالي (١٨٩٣) كتب شو مسرحيته الثانية « المغازل » The Philanderer ، وقد وصفها النـاقد ارثر بانها « اهانة للفن والاخلاق » على ان هذه المسرحية لم يقدّر لها ان تمثل في ذلك الوقت، ولذلك فقد كتب شو مسرحيته الثالثة: « مهنة السيدة وارن » Mrs Warren's Profession (١٨٩٣) وفي هذه المسرحية حاول ان يوضح نظرية الاشتراكيين (بناء على نصيحة من بياتريس ويب) بان النظام الرأسمالي يدفع النساء الى البغاء . وقد رفض اصحاب المسارح تمثيل مسرحية كهذه خشية ثورة الرأي العام عليهم، كما ان الرقيب اصدر امره بمنع تمثيلها في المسارح العامة ، وعلى هذا فان « جماعة المسرح » عملوا على اخراجها في عرض خاص لم يحضره سوى اعضاء جماعتهم ونقاد الصحف .

وفي عام ١٩٠٢ مثلت المسرحية في نادي «الشاعر الجديد» فقامت قيامة النقاد عليها وعلى مؤلفها ووصفوه باشنع الاوصاف والصقوا بشع التهم به. اما الرقيب الذي لم يكن بمقدوره منع تمثيل المسرحية على هذا النحو فقد وصف شو بانه «مؤلف لا يتورع عن اتيان المثالب . »

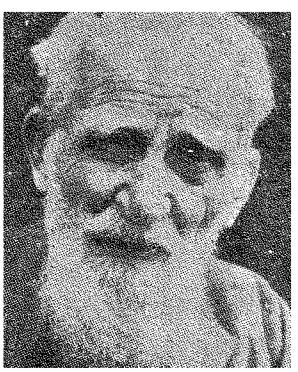

جورج برنارد شو

وفي عام ١٩٠٥ مثلت هذه المسرحية في نيويورك فلاقت نجاحاً منقطع النظير بسبب ما ذاع من رفض الرقيب الانجليزي السماح بتمثيلها في انجلترا. وكانت الجماهير تزدحم على ابواب المسرح وفي الشارع المؤدي اليه مما استثار ريبة المحقق العام فامر بايقاف التمثيل واعتقال الممثلين ولكن القاضي الذي نظر الدعوى قال انه لا يرى في المسرحية عيباً وامر بالافراج عن الممثلين وبعدم التعرض للمسرحية . وفي عام ١٩٠٩ دعي شو لتقديم شهادة عن مسرحيته هذه امام لجنة برلمانية ألفت للنظر في شكاوى المؤلفين ، ولكن الرقيب أصر على منعها . ولم تمثل في مسرح عام للجمهور الانكليزي الا في عام ١٩٢٤

وكتب شو مسرحيته الرابعة « السلاح والانسان » Arms And The Man على عجل في اوائل عام ١٨٩٤ ، ومثلت هذه المسرحية في لندن فلم تلاق نجاحاً كبيراً . على ان تمثيلها على المسارح الانجليزية اعيد بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى بنجاح منقطع النظير .

وفي ذات العام كتب مسرحيته « كانديدا » Candida ، وفي هذه المسرحية تعرض للمشاعر الدينية ، وقد أسرّ للممثلة

ايلين تيري ان شخصية كانديدا في مسرحيته هي شخصية مريم العذراء. وقد مثلت هذه المسرحية في ربيع ١٨٩٥ لاقت نجاحاً حسناً .

وفي خريف ١٨٩٥ كتب شو مسرحيته «رجل الاقدار» The Man of Destiny وفيها تعرض لحياة نابوليون وصوره على طريقته الخـــاصة . وقد مثلت هذه المسرحية في تموز ١٨٩٧ ولكنها لم تصب نجاحاً يذكر .

وبعد ذلك ظهرت مسرحيته « لن تعرف ابـــداً » You Ever Can Tell ، ولكنها لم تمثل على المسرح الا في عام ١٨٩٩ وكان نجاحها ضعيفاً . على ان النجـاح الذي لاقته بعد خمس سنوات كان منقطع النظير .

وفي خريف ١٨٩٦ بدأ كتابة مسرحيته « تابع الشيطان» The Devtlis Disciple وقد مثلت في لندن في ايلول ١٨٩٩ ولكن النجـــاح الذي لاقته في انجلترا لم يكن شيئاً يذكر بالنسبة الى النجاح الذي لاقته في امريكا مما اتاح له ان يطرح جانباً وظيفته التي كان يشغلها في جريدة (الساترداي ريفيو) كناقد مسرحي ... ذلك ان الممثل الامريكي شارل منسفيلد كان قد قام باخراج مسرحية شو « السلاح والانسان » في ايلول ١٨٩٤ ثم قام باخراج «تابع الشيطان» في تشرين ١٨٩٧ في نيويورك حيث لاقت نجاحاً فائقـاً وكانت حصة شو من ارباحها ثلاثة الاف دينار .

وفي اواخر عام ١٨٩٨ بدأ شو يكتب «قيصر وكليوبترا» ولكنه لم يفرغ منها الا في اوائل العام التـــالي . وتعد هذه المسرحية من اعظم المسرحيات التي كتبها . وقد ظهرت اولاً على المسارح الاميركية في شيكاغو (١٩٠١) ثم ظهرت في انجلترا عام ١٩٠٧

ثم كتب مسرحية « هداية الكابتن براسبـــاوند » Capitain Brassbound's Conversion خصيصاً للممثلة ايرين تيري ونحا فيها منحى دينياً . وظهرت على مسارح لنـــدن عام ١٩٠٠ . وبعد ذلك كتب مسرحية «الرجل والرجل الاسمى» Man And Superman. وقد عالج فيها موضوع العقائد وموضوع الاقتصاد ، وطبعت هذه المسرحية عام ١٩٠٣ . ولاول مرة قابلها النقاد بجدية وناقشوا مؤلفها معتبرين اياه كاتباً اجتماعياً وفيلسوفاً ، ومثلت المسرحية في لندن عام ١٩٠٥ وكذلك في الولايات المتحدة حيث استمر تمثيلها تسعة اشهر وكانت الارباح الصافية لمخرجها الممثل لورين اربعين الف دينار .

ثم كتب مسرحيـة « جزيرة جون بول الاخرى » John Bul's Other Island عام ١٩٠٤. ومثلت في لندن فقوبلت بالترحيب . ذلك لانها ابرزت البطل (الانجليزي) على صورة انسان مكافح ناجح ، ومما ساعد على نجاحها ان رئيس الوزراء ارثر بلفور ذهب اربع مرات لمشاهدتها ، ثم مثلت خصيصاً امام الملك ادوار السابع . وقيل ان الملك ضحـك لمشاهدة تمثيلها الى حد ان الكرسي الذي كان يجلس عليه تحطم. وتبع هذه المسرحية بمسرحيته الاخرى « ميجر بربارا» Major Barbara التي مثلت عام ١٩٠٥ وحضر حفلتهـا الاولى رئيس الوزراء وصفوة المجتمع الانجليزي .

وتلت كل هذا مسرحية عالج شو فيها مشاكل الاطباء والمرضى ودعاها « معضلة الطبيب » The Doctor's Dilemma . وقد دفعه لكتابة هذه المسرحية سببان: اولهما قول الناقد وليم ارشر ان شو لا يستطيع الادعاء بانه بلغ قمة النجاح في مسرحياته ما لم يصور مشاهد الموت على المسرح. وثانيهما ان شو كان يعاني في فترات متقطعة المآ شديداً في رأسه حار الاطباء في تحليله ومداواته. وقد مثلت هذه المسرحية في تشرين ثاني ١٩٠٦ واستمر عرضها ستة اسابيع متوالية.

وبعد ذلك كتب مسرحيتي « الاستعداد للزواج » Getting Married . (١٩٠٨) و«اتحاد فاشل» Misalliance (١٩١٠) وبضع مسرحيات قصيرة ذات فصل واحد ، ولكنها لم تكن ذات قيمة ادبية كبرى . وبعد ذلك ظهرت احدى روائعه «اندروكليس والاسد» Aadrocles and the Lion. وقد مثلت في برلين ١٩١٢) ثم في لندن (١٩١٣) كما لحقتها «بيجماليون» ومثلت في فيناثم في لندن

وخلال الحرب الكونية الاولى كتب « البيت الكسير القلب» Heartbreak House وتحتل هذه المسرحية مكاناً فريداً بين مسرحيات شو . وكان يعتز بها اعتزازاً خاصاً . ولم يسمح بتمثيلها الا بعد عدة اعوام حيث ظهرت في نيويورك عام ١٩٢٠ وفي لندن في العام التالي. ثم كتب مسرحيته «عودة الى متوشالح» Back to Methuselah وقد مثلت في نيويورك اولاً (١٩٢٢) ثم في انجلترا (١٩٢٣) .

وعام ١٩٢٣ كتب احدى روائعه «جان دارك » Saint Joan ومثلت في لندن (١٩٢٤) وقبل ذلك بقليل في نيويورك . وقد حازت هذه المسرحية اعظم نجاح احرزته مسرحية له . وتوجت اعماله الادبية كلها .

ومنح جائزة نوبل الادبية ولكنه رفض الجائزة المالية وكتب لامين سر المؤسسة في السويد يقول « ان منحي قيمة الجائزة المالية يعني بالنسبة لي ما يعنيه اعطاء حزام نجاة من الغرق لرجل بلغ الشاطيء في امان » وبعد ذلك صار استعمال المال في محاولة لتقريب روابط الادب مع السويد .

ثم ظهرت له عدة مسرحيات منها « عربة التفاح » و « واقع شرير » و « على الصخور » و « المليونيره » وكانت آخر مسرحيات شو «البلايين السعيدة » وقد مثلت في زيوريخ (١٩٤٨) وفي بريطانيا (١٩٤٩) قبل وفاته بعام واحد . ولا خلاف في ان افضل ما انتج شو من المسرحيات ثلاث : قيصر وكليوبترا ، اندروكليس والاسد ، وجان دارك .

ولا بد من الاشارة الى ممانعة شو في تحويل مسرحياته الى افلام سينمائية. وقد استمرت ممانعته حتى عام ١٩٤٠ ثم اقنعه المعجبون به، والعروض المالية المغرية ، على السماح بظهور مسرحياته على شاشة السينما . وهكذا ظهرت بيجماليون ، وميجر بربارا ، وقيصر وكليوبترا ، وجان دارك .

وجمع برنارد شو ثروة طائلة من نتاج قلمه ، حتى ان الضريبة التي دفعها للحكومة عام ١٩٤٣ بلغت اربعين الف دينار . عشرون الفاً من ضريبة تركات على ما ورثه من ثروة زوجته ، وعشرون الفاً اخرى ضريبة دخل على ما ربحه من تأليف الكتب وانشاء المقالات .

المفرق (الاردن) **سليمان موسى**